رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

مقدمة الشارح

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رَبِّ العَالَمِينَ، والصلاة والسَّلام على نبينا محمد خاتم النبيين، وإمام المتقين، **أَمَّا بَعْدُ:**

فإننا نَعلم كُلُّنا أنَّ المقصود مِن العِلم هو العَمل، فالعِلم وسيلةٌ والعمل ثَمَرَةٌ، وإذا لم يَنتفعِ الإنسانُ بعِلمه، فالجاهلُ خيرٌ منه، وكثيرٌ مِن المسائل العِلمية يفهمها كثيرٌ مِن الطلبة، لكنهم لا يُنَفِّذُونها، سواء كانت في العبادات، أَمْ في المعاملات مع الخَلق، وهذا لا شكَّ أنه نقصٌ، وسببٌ أيضًا للنقص -أي: لنَقْصِ العِلم-؛ فإنَّ الإنسانَ إذا عَمِلَ بِعِلْمِه، انتفعَ وازداد عِلْمُه، ومَنْ عَمِلَ بِمَا عَلِمَ وَرَّثَهُ اللهُ عِلْمَ مَا لَمْ يَعْلَمْ.

هناك آدابٌ كثيرة نفهمها بِدُونِ أن نقرأ، ومع ذلك نَجِد كثيرًا مِن الطلبة قد أخلَّ بها، والسبب في ذلك أَنَّ الإنسَان لا يُراعي ما عَلِمه مِن كتاب الله تعَالى وسُنة رسوله ﷺ، وأقوال العُلَماء، كأنما يقرأ للنظر فقط لا للتطبيق، وهذه علة تُصَعِّبُ على الإنسَان طلب العلم، وتفقده ثمرته.

لكن لَوْ أنه كُلَّمَا ظَفَرَ بحُكم مسْألة مِن العبادات، أو الأَخْلاق، أو المعاملات، فرحَ بها، وطَبَّقَها فِعلًا لَحَصّل خيرًا كثيرًا.

لذلك نحثُّكم جميعًا -طلبةَ العِلم- على أنْ تَحْرِصُوا على التزام الآداب فيما تقرؤونه في هذه المقدمة وغيرها؛ حتى تنتفعوا بالعِلم.

أمَّا أَنْ يعلم الإِنسَان، أَنَّ العُلَماء قالوا: هذا حرام، وهذا حلال، وهذا واجب، ويَفهم هذا جيدًا، ولكن لا يُطَبِّق، فَهَذَا لَا خير في عِلمه؛ لَا بُدَّ أن تُطَبِّقَ، وإلا فَاعْلَمْ أنك محروم.

الفقير الذي لا يتصدق يُعْذَر، لكنِ الغنيُّ الذي لا يتصدق لا يُعْذَرُ؛ والجاهل الذي لا يَعلم يُعذَر، والعالِـم الذي يَعلم لا يُعْذَر، لَا بُدَّ أن تُطَبِّق ما عَلِمْتَه مِن كتاب الله تعَالى وسُنَّة رسوله ﷺ في العبادات والأَخْلاق والمعاملات، وإلا فلا قِيمة للعِلم إطلاقًا.

العِلم النظري الذي يعرفه الإِنسَان نظرًا يشترك فيه الكافر والمؤمن، حتى الكفار عندهم مِن العِلم الشيْء الكثير؛ يعرفون كثيرًا مِن الأحكام الشرعية، وكثيرًا مِن الأحكام اللُّغوية، ومع ذلك لم ينتفعوا بذلك، فالذي لا ينتفع بِعِلمه فالجاهلُ خيرٌ منه.

ونرجو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أَنْ يَكُونَ فِي تعليقنا عَلَى هَذِهِ المقدمة خَيْرٌ كَثِيرٌ، وأن ننتفعَ بها إِنْ شَاءَ اللهُ، فلنبدأ قراءةً وتعليقًا، لا قراءةً وشرحًا؛ لأن بالقراءة والشرح يطول بنا الزمن، والله ولي التوفيق.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

فَصْلٌ: في الإِخْلاصِ وَالصِّدْقِ وَإِحْضَارِ النِّيَّةِ فِي جَمِيعِ الأَعْمَالِ البَارِزَةِ وَالْخَفِيَّةِ[١]

قَالَ اللهُ تعَالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة:٥]، وَقَالَ تعَالى: ﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ [الزمر:٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَخۡرُجۡ مِنۢ بَيۡتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدۡرِكۡهُ ٱلۡمَوۡتُ فَقَدۡ وَقَعَ أَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [النِّساء:١٠٠].

قال فضيلة الشَّيخ العلَّامة محمد بْن صالح العُثيمين -رَحِمه الله تعَالى-:

الحمد للهِ رَبِّ العَالَمِينَ، والصلاة والسَّلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد، وعلى آله وأصحابِه، ومَن تَبِعهم بإحسانٍ إلى يوم الدِّين.

[١] قال المؤلف الحافظ النوويُّ[(١)] -رَحِمه الله تعَالى-: «**فَصْلٌ فِي الإِخْلَاصِ وَالصِّدْقِ...**».

الإِخْلاص: هو الأساس الذي تَنْبَنِي علَيْه جميعُ الأعمال، قال الله تعَالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة:٥].

قد يتبادر إلى ذِهن الإِنسَان أَنْ يَكُونَ سياقُ الكلام هكذا: «وما أُمِروا إلا بأن يعبدوا الله»، ولكن جاءت اللامُ بَدَلَ الباءِ، فيكونُ هذا تعليلًا لشيْء محذوف، أي: ما أُمِرُوا بما أُمِرُوا به إلا ليعبدوا الله.

---

(١) هو الحافظ العلامة محيي الدين أبو زكريا يحيى بن شرف النووي، المتوفى عام ٦٧٦هـ -رحمه الله رحمة واسعة- انظر: طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (٨/ ٣٩٥).

.....

فاللام هنا لَيْسَتْ بمَعْنى الباء كما يَتَوَهَّمُه بعض النَّاس، ولكن اللام لِلتَّعْلِيلِ، والمأمورُ به محذوف معلومٌ مِن السياق، أي: ما أُمروا بها أُمروا به إلا لتحقيق العبادة، والإخلاص لله تعَالى فيها، ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾.

وقال تعَالى: ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ [الزمر:٢]، وَلَيْتَ المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أَتَمَّها فقال: ﴿مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزمر:٢-٣]، فكل هذا تابعٌ، ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾، والعبادة هي الدِّين، والدِّين هو العبادة ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾، وما لَيْسَ بِخَالِصٍ فَلَيْسَ لله، ولا يَقبله الله عَزَّوَجَلَّ، كما جاء في الحديث الصَّحيح أَنَّ الله تعَالى قال في الحديث القُدسي: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ»[1].

إذن اعمَل مخلصًا لله، اعمَل مؤمنًا بأن الدِّين الخالص لله وحده.

﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ قَدَّمَ الخَبَرَ لإفادة الحَصر.

وقال تعَالى: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [النِّساء:١٠٠]، فلله الحمدُ والشُّكر؛ يَعْني: مَن شَرَع في الأعمال الصالحة يريدُها، وَلَكِنَّهُ لم يُدركها -أدركه الموت- فقد وقع أجرُه على الله.

وهذه بُشرى لطالب العِلم الذي بدأ بالعِلم مِنْ أَجْلِ أَنْ ينال العلم، فينتفعَ، وينفعَ عِباد الله؛ لَوْ أدركه الموتُ، فإنَّ أجرَه الذي أراده قد وقع على الله عَزَّوَجَلَّ.

وهذا ضمانٌ مِن رَبِّنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أَنْ يُثيبَه ثوابَ البالِغ لِغَايَتِه؛ ولهذا جاء في

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزهد والرقائق، باب من أشرك في عمله غير الله، رقم (٢٩٨٥).

وَرُوِّينَا عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ، فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا، أَوِ امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا، فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ**». حَدِيثٌ صَحِيحٌ مُتَّفَقٌ عَلَى صِحَّتِهِ مُجْمَعٌ عَلَى عِظَمِ مَوْقِعِهِ وَجَلَالَتِهِ[1]، وَهُوَ إِحْدَى قَوَاعِدِ الإِيمَانِ، وَأَوَّلُ دَعَائِمِهِ، وَآكَدُ الأَرْكَانِ[1].

الحديث أَنَّ مَن خَرَجَ مِن بيته يريد الجَماعة فوجدهم قد صَلَّوْا، فإنه يُكتَب له أجرُ الجماعة[2]؛ لأنه خَرَجَ مِن بيته يريد ذلك، لكن لم يُدْرِكْه، وهذا إِذَا كَانَ لِعُذْرٍ، أَمَّا إِذَا كَانَ لغير عُذر فلا؛ لأنه هو المُفَرِّط.

[١] هذا الحديث -كما هو معلومٌ- هو مِيزان الأعمال الباطنة، وحديث عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ**»[3]، ميزان الأعمال الظَّاهرة، وبهَذَيْن الحدِيثَيْن الكَريمَيْن الشَّريفَيْن تتمُّ أركانُ الأعمال؛ لأن أركانَ الأعمال هي:

- **الأوَّل**: الإِخْلاص.
- **والثَّاني**: المتابعة.

والإخلاص أقدمُ الرُّكنين؛ ولهذا قال: إنه أوَّل دعائم الإيمان وأوكَدُ أركانه، فيُخلص أوَّلًا، ثم يَعمل ثانيًا.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الوحي، باب بدء الوحي، رقم (١)، ومسلم: كتاب الإمارة، باب قوله ﷺ: «إنما الأعمال بالنية»، رقم (١٩٠٧).

(٢) أخرجه أحمد برقم (٨٧٢٤)، والنسائي: كتاب الإمامة، باب حد إدراك الجماعة، رقم (٨٥٥).

(٣) أخرجه مسلم: كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة، رقم (١٧١٨).

قَالَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يَدْخُلُ هَذَا الحَدِيثُ فِي سَبْعِينَ بَابًا مِنَ الفِقْهِ»(١)[١].

وَقَالَ أَيْضًا: «هُوَ ثُلُثُ العِلْمِ»(٢)، وَكَذَا قَالَهُ أَيْضًا غَيْرُهُ، وَهُوَ أَحَدُ الأَحَادِيثِ الَّتِي عَلَيْهَا مَدَارُ الإِسْلَامِ.

وَقَدِ اخْتُلِفَ فِي عَدِّهَا فَقِيلَ: ثَلَاثَةٌ، وَقِيلَ: أَرْبَعَةٌ، وَقِيلَ: اثْنَانِ، وَقِيلَ: حَدِيثٌ، وَقَدْ جَمَعْتُهَا كُلَّهَا فِي جُزْءِ الأَرْبَعِينَ فَبَلَغَتْ أَرْبَعِينَ حَدِيثًا، لَا يَسْتَغْنِي مُتَدَيِّنٌ عَنْ مَعْرِفَتِهَا؛.....

أَمَّا ذِكر الهجرة، فإن النَّبِي ﷺ ذَكَرَها على سبيل التمثيل، وإلا فجميعُ الأعمال على هذا، مَن كان عَمَلُه لله تعَالى ورسولِه ﷺ فعملُه لله ورسوله، وقد نالَ مقصودَه، ومَنْ كان عَمَلُه للدنيا فقد خَسِرَ.

وإنَّما لم يُصَرِّح النبيُّ ﷺ بِمُرَادِهِ حيْثُ قال: «**فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ**»، إشارةً إلى أَنَّ هذا قصدٌ دَنِيءٌ حَقِير، لا يستحق أَنْ يُنوَّه عنه، لكن مَن كانت هجرتُه إلى الله ورسوله، فهو غَرَضٌ نَبِيلٌ شَريف؛ ولهذا أعاده النَّبِي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فقال: «**فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ**».

[١] قوْل الشَّافِعِيّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إِنَّ هذا الحديثَ يَدخل في سبعين بابًا مِن الفِقه، وَإِنْ كَانَ للفِقه أبوابٌ أكثر مِن ذلك، فإنه يدخل فيها، فإنه يدخل فِي كُلِّ الأعمال، حتى إنه يدخل في العادات، فقد يأكل الإِنسَان، ويشرب ويلبس وينام، ويتمتع بأهله بِنِيَّةٍ خالِصة فيَدخُل في هذا الحديث.

فالواقع أنه داخل في جميع الأعمال.

---

(١) فتح الباري (١/ ١١).
(٢) فتح الباري (١/ ١١).

لِأَنَّهَا كُلَّهَا صَحِيحَةٌ جَامِعَةٌ قَوَاعِدَ الإِسْلَامِ فِي الأُصُولِ وَالْفُرُوعِ وَالزُّهْدِ وَالْآدَابِ، وَمَكَارِمِ الأَخْلَاقِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ.

وَإِنَّمَا بَدَأْتُ بِهَذَا الحَدِيثِ تَأَسِّيًا بِأَئِمَّتِنَا، وَمُتَقَدِّمِي أَسْلَافِنَا مِنَ العُلَمَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَقَدَ ابْتَدَأَ بِهِ إِمَامُ أَهْلِ الحَدِيثِ بِلَا مُدَافَعَةٍ أَبُو عَبْدِ اللهِ البُخَارِيُّ صَحِيحَهُ، وَنَقَلَ جَمَاعَةٌ أَنَّ السَّلَفَ كَانُوا يَسْتَحِبُّونَ افْتِتَاحَ الكُتُبِ بِهَذَا الحَدِيثِ تَنْبِيهًا لِلطَّالِبِ عَلَى تَصْحِيحِ النِّيَّةِ، وَإِرَادَتِهِ وَجْهَ اللهِ تَعَالَى بِجَمِيعِ أَعْمَالِهِ البَارِزَةِ وَالْخَفِيَّةِ.

وَرُوِّينَا عَنَ الإِمَامِ أَبِي سَعِيدٍ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ مَهْدِيٍّ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: «لَوْ صَنَّفْتُ كِتَابًا بَدَأْتُ فِي أَوَّلِ كُلِّ بَابٍ مِنْهُ بِهَذَا الحَدِيثِ»[(١)].

وَرُوِّينَا عَنْهُ أَيْضًا قَالَ: «مَنْ أَرَادَ[(٢)] أَنْ يُصَنِّفَ كِتَابًا فَلْيَبْدَأْ بِهَذَا الحَدِيثِ»[(٣)].

وَقَالَ الإِمَامُ أَبُو سُلَيْمَانَ أَحْمَدُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ بْنِ الخَطَّابِ الخَطَّابِيُّ الشَّافِعِيُّ الإِمَامُ فِي عُلُومٍ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: «كَانَ المُتَقَدِّمُونَ مِنْ شُيُوخِنَا يَسْتَحِبُّونَ تَقْدِيمَ حَدِيثِ: «الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ» أَمَامَ كُلِّ شَيْءٍ يُنْشَأُ وَيُبْتَدَأُ مِنْ أُمُورِ الدِّينِ لِعُمُومِ الحَاجَةِ إِلَيْهِ فِي جَمِيعِ أَنْوَاعِهَا»[(٤)].

وَهَذِهِ أَحْرُفٌ مِنْ كَلَامِ العَارِفِينَ فِي الإِخْلَاصِ وَالصِّدْقِ:

---

(١) عمدة القاري (١/ ٢٢)، ومرعاة المفاتيح (١/ ٣٢).

(٢) في المطبوع: (راد) وهو تصحيف، والتصويب من عمدة القاري (١/ ٢٢)، وفيض القدير (١/ ٢٧)، ومرعاة المفاتيح (١/ ٣٢).

(٣) انظر المصادر السابقة.

(٤) انظر الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري، للكرماني (١/ ٢٠).

قَالَ أَبُو العَبَّاسِ عَبْدُ اللهِ بْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «إِنَّمَا يُعْطَى الرَّجُلُ عَلَى قَدْرِ نِيَّتِهِ»(١)[١].

وَقَالَ أَبُو مُحَمَّدٍ سَهْلُ بْنُ عَبْدِ اللهِ التُّسْتَرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «نَظَرَ الأَكْيَاسُ فِي تَفْسِيرِ الإِخْلَاصِ فَلَمْ يَجِدُوا غَيْرَ هَذَا أَنْ تَكُونَ حَرَكَاتُهُ وَسُكُونُهُ فِي سِرِّهِ وَعَلَانِيَتِهِ للهِ تعَالى وَحْدَهُ لَا يُمَازِجُهُ شَيْءٌ، لَا نَفْسٌ، وَلَا هَوًى وَلَا دُنْيَا»(٢).

وَقَالَ السَّرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «لَا تَعْمَلْ لِلنَّاسِ شَيْئًا، وَلَا تَتْرُكْ لَهُمْ شَيْئًا، وَلَا تُعْطِ لَهُمْ، وَلَا تَكْشِفْ لَهُمْ شَيْئًا»(٣).

وَرُوِّينَا عَنْ حَبِيبِ بْنِ أَبِي ثَابِتٍ التَّابِعِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّهُ قِيلَ لَهُ حَدِّثْنَا. فَقَالَ: «حَتَّى تَجِيءَ النِّيَّةُ».

---

[١] هذا الأثر مأخوذ مِن قوْل النَّبي ﷺ: «**إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ**»(٤)، فعَلى قَدْر النِّيَّة يُعطى الإنسانُ، وعلى قَدْرِ النِّيَّة يكون الأثر في قوْله، أو فِعله، وعلى قَدْرِ النِّيَّة يكون الثَّواب؛ فالنِّيَّةُ هي كلُّ شيْء، نسأل اللهَ أَنْ يُخلص لنا ولكم النِّيَّة.

قـوْله: «**لَا تُعْطِ لَـهُمْ شَيْئًا**»، أي: لقصد النَّاس، فأنت إذا تصدقتَ على فقير، فلا تُعطه مِنْ أَجْلِ أن تنفعه، بل أعطه تقرُّبًا إلى الله.

ولا بُدَّ أَنَّ هذا مُراده رَحِمَهُ اللَّهُ؛ لأننا لَوْ أخذنا بظاهرها، لكان معْنَاهُ: امنع الزكاة، وامنع الصدقات؛ وهذا لا يُمْكن.

---

(١) أخرجه الدارمي: كتاب المقدمة، باب: التوبيخ لمن يطلب العلم لغير الله، رقم (٣٨٧)، بلفظ: «إِنَّمَا يُحْفَظُ حَدِيثُ الرَّجُلِ عَلَى قَدْرِ نِيَّتِهِ».

(٢) بستان العارفين للنووي (ص:٢٨).

(٣) بستان العارفين للنووي (ص:٢٨).

(٤) أخرجه البخاري: كتاب بدء الوحي، باب بدء الوحي، رقم (١)، ومسلم: كتاب الإمارة، باب قوله ﷺ: «إنما الأعمال بالنية»، رقم (١٩٠٧).

وَعَنْ أَبِي عَبْدِ اللهِ سُفْيَانَ بْنِ سَعِيدٍ الثَّوْرِيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ قَالَ: «مَا عَالَجْتُ شَيْئًا أَشَدَّ عَلَيَّ مِنْ نِيَّتِي إِنَّهَا تَتَقَلَّبُ عَلَيَّ».

وَرُوِّينَا عَنِ الأُسْتَاذِ أَبِي القَاسِمِ عَبْدِ الكَرِيمِ بْنِ هَوَازِنَ القُشَيْرِيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فِي رِسَالَتِهِ المَشْهُورَةِ قَالَ: «الْإِخْلَاصُ إِفْرَادُ الحَقِّ فِي الطَّاعَةِ بِالْقَصْدِ، وَهُوَ أَنْ يُرِيدَ بِطَاعَتِهِ التَّقَرُّبَ إِلَى اللهِ تعَالى دُونَ شَيْءٍ آخَرَ مِنْ تَصَنُّعٍ لِمَخْلُوقٍ، أَوِ اكْتِسَابِ مَحْمَدَةٍ عِنْدَ النَّاسِ، أَوْ مَحَبَّةِ مَدْحٍ مِنَ الخَلْقِ، أَوْ شَيْءٍ سِوَى التَّقَرُّبِ إِلَى اللهِ تَعَالَى»[(١)].

قَالَ: «وَيَصِحُّ أَنْ يُقَالَ: الإِخْلَاصُ تَصْفِيَةُ العَقْلِ[(٢)] عَنْ مُلَاحَظَةِ المَخْلُوقِينَ».

قَالَ: «وَسَمِعْتُ أَبَا عَلِيٍّ الدَّقَّاقَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يَقُولُ: الإِخْلَاصُ التَّوَقِّي عَنْ مُلَاحَظَةِ الخَلْقِ، وَالصِّدْقُ التَّنَقِّي عَنْ مُطَالَعَةِ النَّفْسِ، فَالْمُخْلِصُ لَا رِيَاءَ لَهُ، وَالصَّادِقُ لَا إِعْجَابَ لَهُ»[(٣)].

وَعَنْ أَبِي يَعْقُوبَ السُّوسِيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ قَالَ: «مَتَى شَهِدُوا فِي إِخْلَاصِهِمُ الإِخْلَاصَ احْتَاجَ إِخْلَاصُهُمْ إِلَى إِخْلَاصٍ»[(٤)][١].

---

[١] وقول السُّوسيّ: «**مَتَى شَهِدُوا فِي إِخْلَاصِهِمُ الإِخْلَاصَ، احْتَاجَ إِخْلَاصُهُمْ إِلَى إِخْلَاصٍ**»، معْنَاهُ أنها سلسلة دائمة، وهذا كقول القائل:

إِذَا كَانَ شُكْرِي نِعْمَةَ اللهِ نِعْمَةً ... عَلَيَّ لَهُ فِي مِثْلِهَا يَجِبُ الشُّكْرُ

---

(١) الرسالة القشيرية (٢/ ٣٥٩).

(٢) كذا في المطبوعة، وهو تحريف، والصواب: (الفعل)، كما في الرسالة القشيرية (٢/ ٣٥٩).

(٣) الرسالة القشيرية (٢/ ٣٦٠).

(٤) الرسالة القشيرية (٢/ ٣٦٠).

وَعَنْ ذِي النُّونِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ قَالَ: «ثَلَاثَةٌ مِنْ عَلَامَاتِ الإِخْلَاصِ: اسْتِوَاءُ المَدْحِ وَالذَّمِّ مِنَ العَامَّةِ[١]، وَنِسْيَانُ رُؤْيَةِ الأَعْمَالِ فِي الأَعْمَالِ[٢]، وَاقْتِضَاءُ ثَوَابِ العَمَلِ فِي الآخِرَةِ[٣]».

فَكَيْفَ بُلُوغُ الشُّكْرِ إِلَّا بِفَضْلِهِ وَإِنْ طَالَتِ الأَيَّامُ وَاتَّصَلَ العُمْرُ(١)

وهذا صَحيح؛ لأَنَّ اللهَ إذا وفَّقك لشُكر النعمة، فهذه نعمة تحتاج إلى شُكر، ثم إذا شكرتها فهو نعمة تحتاج إلى شُكر، وهكذا أبدًا.

ولهذا كان مِن ثناء النَّبي ﷺ على ربّه أنه يَقول: «**لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ**»(٢).

فالإخلاص إخلاصُ الإِخْلاص، وإخلاص الإِخْلاص يحتاج إلى إخلاصٍ أيضًا، نَسْأَلُ اللهَ تعَالى العون على ذِكره وشُكره، وحُسْنِ عبادته.

[١] **الأوَّل**: «**اسْتِوَاءُ المَدْحِ وَالذَّمِّ مِنَ العَامَّةِ**»، أي: إنَّ الإنسَان لا يبالي أَمَدحه الناسُ أَمْ ذَمُّوه.

[٢] **الثَّاني**: «**نِسْيَانُ رُؤْيَةِ الأَعْمَالِ فِي الأَعْمَالِ**»، بمَعْنى: أنك إذا عملت عملًا صالحًا تنساه، لا تجعله أمامَك حتى تُدِلَّ على الله به، وتقول في نفسك: عملت وعملت؛ بل انْسَهُ.

[٣] **والثالث**: «**اقْتِضَاءُ ثَوَابِ العَمَلِ فِي الآخِرَةِ**»، بمَعْنى أَنَّ الإنسَان يريد العَمل لثواب الآخِرَة فقط، لا يريد ثواب الدُّنيا، وإنَّما يريد ثواب الآخِرَة.

---

(١) قاله محمود الوراق، وذكره الألوسي في تفسيره (١٦/ ٢٧٤)، وانظر مختصر شعب الإيمان (١/ ٦٧).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب ما يُقال في الركوع والسجود، رقم (٤٨٦).

وَعَنْ أَبِي عُثْمَانَ[١] رَحِمَهُ ٱللَّهُ قَالَ: «الْإِخْلَاصُ نِسْيَانُ رُؤْيَةِ الخَلْقِ بِدَوَامِ النَّظَرِ إِلَى الخَالِقِ»[٢][١].

وَعَنْ حُذَيْفَةَ المَرْعَشِيِّ[٣] رَحِمَهُ ٱللَّهُ قَالَ: «الْإِخْلَاصُ أَنْ تَسْتَوِيَ أَفْعَالُ العَبْدِ

لكن لَوْ نوى ثواب الدُّنيا والآخرة، فلا بَأْسَ؛ لأَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يذكر في القرآن أشياء في الدُّنيا ترغب في العَمل، ولولا أنه سيكون لها تأثير في العَمل لكان ذكرُها لَغْوًا.

وكذلك جاء في السُّنة، كقول النَّبِي ﷺ: «**مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ، وَيُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ**»[٤].

فالرَّسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ذكر ذلك لِأَجْلِ أن نتشجع، ونَنْشَطَ على صلة الرحم، ويقول الله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل:٩٧]، هذا الثَّواب العاجل، ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم﴾، هذا الثَّواب الآجِل.

[١] هذه الكلمات كلها لأئمة الصوفية فيما يَظهر، وتجد أن كلماتهم -سبحان الله- تكون قوية ومختصرة، ويشعر فيها الإنسَان بِلَذَّةٍ.

---

(١) هو سعيد بن سلام، وقيل: سلم أبو عثمان المغربي الصوفي، ورد بغداد وأقام بها مدة، ثم خرج منها إلى نيسابور فسكنها، وكان من كبار المشايخ، له أحوال مأثورة، وكرامات مذكورة. ترجمته في تاريخ بغداد (١٠/ ١٦٢).

(٢) الرسالة القشيرية (٢/ ٣٦١).

(٣) هو حُذَيفة بن قتادَة المرعشي، من العُبَّاد، مِمن لا يأكل إلا الحلال المحض سكن أنطاكية، مَاتَ سنة سبع ومئتين. ترجمته في الثقات، لابن حبان (٨/ ٢١٦).

(٤) أخرجه البخاري: كتاب البيوع، باب من أحب البسط في الرزق، رقم (٢٠٦٧)، ومسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها، رقم (٢٥٥٧).

فِي الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ»(١)[١].

وَعَنْ أَبِي عَلِيٍّ الفُضَيْلِ بْنِ عِيَاضٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ قَالَ: «تَرْكُ العَمَلِ لِأَجْلِ النَّاسِ رِيَاءٌ، وَالْعَمَلُ لِأَجْلِ النَّاسِ شِرْكٌ، وَالْإِخْلَاصُ أَنْ يُعَافِيَكَ اللهُ مِنْهُمَا»(٢)[٢].

وَعَنْ رُوَيْم(٣) رَحِمَهُ ٱللَّهُ قَالَ: «الْإِخْلَاصُ أَلَّا يُرِيدَ عَلَى عَمَلِهِ عِوَضًا مِنَ الدَّارَيْنِ، وَلَا حَظًّا مِنَ الْمُلْكَيْنِ»(٤)[٣].

---

[١] وإذا كان في الظَّاهر يُقوِّمُها ويُصلحها، وفي الباطن بالعكس، فهذا لَيْسَ بمُخلص؛ بل هذا مُرَاءٍ.

[٢] ترك العَمل لِأَجْلِ النَّاس رياء؛ لأنَّك تركت العَمل ليقال: فلان لَيْسَ بمُراءٍ، فتكون مُرائيًا في الواقع، والعمل لِأَجْلِ النَّاس شِرك؛ لأنَّك أشركت في النِّيَّة -في نية العَمل-، هذا معنى كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

كثير مِن النَّاس يترك العَمل لِأَجْلِ النَّاس، ويَقول: أخشى أَنْ أَعْمَلَ فيقال: فلان عابد، أو ما أَشْبَهَ ذلك، فنقول: هذا غلط، هذا هو الرِّيَاء، أنت تركت لأجْل أَنْ يَقول النَّاس أنت غُير مُراء، فإذا عمل لِأَجْلِ النَّاس فهو شرك؛ لأن الرِّيَاء نوعٌ مِن الشرك.

[٣] «المَلَكَيْنِ» أي: الكـاتِبَيْن، لكـن هذا لَيْسَ بصحيح، هـذا لا شكَّ أنه غلط،

---

(١) الرسالة القشيرية (٢/ ٣٦١).

(٢) الآداب الشرعية، لابن مفلح (١/ ٢٦٦).

(٣) هو رُويم بن أحمد وقيل رويم بن محمد بن يزيد بن رويم بن يزيد أبو الحسن، وقيل: أبو محمد، وقيل: أبو الحسين الصوفي، من أفاضل البغداديين، كان عالما بالقرآن ومعانيه. ترجمته في تاريخ بغداد (٩/ ٤٢٨).

(٤) الرسالة القشيرية (٢/ ٣٦١).

وَعَنْ يُوسُفَ بْنِ الحُسَيْنِ(١) رَحِمَهُ ٱللَّهُ قَالَ: «أَعَزُّ شَيْءٍ[١] فِي الدُّنْيَا الإِخْلَاصُ»(٢).

وأنه خلاف ما كان علَيْه الرَّسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وأصحابه.

يَقول الله عَزَّوَجَلَّ في وصف الرَّسول وأصحابه: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ [الفتح:٢٩].

فالفضل قَبل الرضوان، لكن كما قُلْنا لكم: مِن أئمة الصوفية مَنْ يَقول: لا تَعمل لِحَظِّ نفسك أبدًا، إِنْ عَمِلْتَ لِحَظِّ نفسك -ولو لثواب الآخِرَة- فعملُك ناقص، وهذا خلاف الصواب؛ لأن الإِنسَان الذي يعمل يريد ثواب الله؛ فعنده إيمانٌ كامل بما وعد الله تعَالى مِن الثَّواب، وهذا غاية الإِخْلاص.

فالصواب أَنَّ هذا القولَ لَيْسَ بصواب.

[١] «**أَعَزُّ شَيْءٍ**» يَعْني: أَصْعَبُه، كقوله تعَالى: ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [إبراهيم:٢٠، فاطر:١٧]، أي: بصعْب وممتنع. يَعْني أشد ما يكون الإِخْلاص؛ وصدقَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فالإنسان يصعُب علَيْه جدًّا جدًّا أَنْ يَكُونَ مخلصًا في العَمل؛ ولهذا يَجِبُ أَنْ نجاهد النفس عَلَى هَذِهِ المسْألة؛ أن نجاهد ألَّا نريد رياءً، ولا سمعةً، ولا إعجابًا بالنفس، ولا ظُهورًا على الأصحاب؛ بل يكون عمل الإِنسَان لله تعَالى وبالله، وفي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

---

(١) هو يوسف بن الحسين بن علي أبو يعقوب الرازي من مشايخ الصوفية كَانَ كثير الأسفار، وصَحِبَ ذا النون المصري وحكى عنه، وسمع: أحمد بن حنبل، وورد بغداد، فسمع منه بها: أحمد بن سلمان النجاد. ترجمته في تاريخ بغداد (١٦/ ٤٦٢).

(٢) الرسالة القشيرية (٢/ ٣٦٢).

وَعَنْ أَبِي عُثْمَانَ[١] قَالَ: «إِخْلَاصُ العَوَامِّ مَا لَا يَكُونُ لِلنَّفْسِ فِيهِ حَظٌّ، وَإِخْلَاصُ الخَوَاصِّ مَا يَجْرِي عَلَيْهِمْ لَا بِهِمْ، فَتَبْدُو مِنْهُمُ الطَّاعَاتُ وَهُمْ عَنْهَا بِمَعْزِلٍ، وَلَا يَقَعُ لَهُمْ عَلَيْهَا رُؤْيَةٌ، وَلَا بِهَا اعْتِدَادٌ»[٢][١].

[١] هذا يُسمونه الفَناء، وهذا لَيْسَ بصحيح أيضًا؛ الإِخْلاص أن تبدُوَ الطاعات، وهُم فيها ليسوا عنها بمعزل، وهناك فَناءٌ صوفي، لكنه بِدعي؛ وهو الفَناء عن شُهود السِّوى، فعندهم الفَنَاءُ ثلاثة أنواع:

١- فَناء عن إرادة السِّوى.

٢- وفَناء عن شُهود السِّوى.

٣- وفَناء عن وجود السِّوى.

وكل هذه مصطلحات عند الصوفية.

الفَناء عن إرادة السِّوى: يَعْني أَنْ يشتغل بالطاعات عن المعاصي، وبالإخلاص عن الشرك، وكذلك بالنافع عن الضارِّ.

والفَناء عن شهود السِّوى: أَنْ يَفنى عن مشاهدة كل شيْء، حتى يَفنى عن شُهود العبادة؛ فيصلي وهو لا يدري: أهو يُصلّي أَمْ لا يُصلّي؟ يَذكر الله، وهو لا يدري: هل يذكر الله أَمْ لا؛ لأن قلبه منشغل جدًّا جدًّا بالمعبود والمذكور؛ فينسى.

ولهذا تصل الحال ببعضهم إلى الجُنون والسُّكر والإغماء، حتى ذَكَر شيخُ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ عنهم أشياءَ غريبة[٣]، يَقول بعضهم: سُبحاني سُبحاني، أنا الله،

(١) هو سعيد بن سلام، وقيل: سلم أبو عثمان المغربي الصوفي. تقدمت ترجمته.
(٢) بستان العارفين، للنووي (ص:٢٧).
(٣) انظر على سبيل المثال كتاب الاستقامة (٢/ ١٦٢).

.....

يُجَنُّ مِن الطاعات، ويَقول أحدهم: أَنْصِبُ خَيْمتي على جهنم! نَسْأَلُ اللهَ أَنْ يُعيذنا مِن جهنم.

ويَقول أحدهم: ما في الجُبَّة إلا الله. يَعْني جُبَّتَه التي يلبسها في الشتاء، يَقول: ما فيها إلا الله؛ لأنه غاب عقلُه، فهؤلاء مجانين يُصرعون ويُصعقون ويموتون.

أما الفَناء عن وجود السِّوى: -والعياذ بالله- فهذا هو القولُ بِوَحْدَةِ الوُجود، وأن الوجود هو الله عَزَّوَجَلَّ، لَيْسَ فيه سِوى الله، وكلها -ولا شكَّ- أقوالٌ باطلةٌ.

الفَناء عن إرادة السِّوى صَحيح، لكن إطلاقُ مصطلح (الفناء) علَيْه تبعٌ لمصطلحات هؤلاء الصوفية، وإلا لم نكن نقول: هذا فَناء؛ بل هو حياة في الواقع.

هل إذا اشتغل الإنسَان بطاعة الله عن معصيته، وبِذِكره عن الغفلة، وبالاتباع عن الابتداع، وبالإخلاص عن الشرك، فلا نقول هذا فناء، بل هو في الحقيقة حياة.

فإن قال قائلٌ: ما هي أجمعُ العبارات المذكورة آنفًا في بيان الإِخْلاص؟

أجمعها أن تقول: الإِخْلاص هو أَنْ يريد الإنسَان بعمله وجه الله، والدارَ الآخِرَة.

هذا أجمع شيْء، وإن كانت لم تمرَّ علينا.

قلنا: إِنَّ الإنسَان إِذَا كَانَ يعمل في الظَّاهر بالصلاح والطاعة ولم يكن في الباطن كذلك، فَإِنَّ هَذَا مِنَ الرِّيَاءِ، فَهَلْ نستخرج حكمًا ونقول: إِنَّ كُلَّ مَنْ كَانَ كَذَلِكَ فَهُوَ مراءٍ؟ قد لا يريد الرِّيَاء، قد يريد بهذا هداية النَّاس، حتى يَقتدوا به، ويجعلوه إمامًا، لكن المُرائي هو الإنسَان الذي إِذَا كَانَ في بيته لا يعمل، وفي المسجد يعمل، لا شكَّ أَنَّ هذا رياء.

وَأَمَّا الصِّدْقُ، فَقَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة:١١٩][١].

هذا هو الأَصْل، وَقَدْ يَكُونُ يريد شيئًا آخَر.

فإن قال قائلٌ: ما الذي يقصده ذو النون بقوله: «**مِنْ عَلَامَاتِ الإِخْلَاصِ اسْتِوَاءُ المَدْحِ وَالذَّمِّ مِنَ العَامَّةِ**»، مع أنه لا يوجد أحد يستوي عنده المدْح والذم، حتى النَّبِي ﷺ لـما قال له ذو الخُوَيْصِرَةِ التميميُّ ما قال له، غضب عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ واحمرَّ وجهُه[١].

لا لَيْسَ مِنْ أَجْلِ هذا، فبطبيعة البشر أَنَّ الإِنسَان يُحِبُّ المدحَ، ويَكْرَهُ الذَّمَّ، لكن مقصد ذي النُّون أَنْ يستويَ عندك مدحُ النَّاس وذمُّهم في العبادات، يَعْني سواء مَدَحُوك وقالوا: رَجل عابد، أو ذَمُّوك؛ وقالوا خلافَ ذلك.

قال النَّبِي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**مَنْ سَرَّتْهُ حَسَنَتُهُ، وَسَاءَتْهُ سَيِّئَتُهُ فَذَلِكَ المُؤْمِنُ**»[٢]، لكن أنا سأصلي، سواء مَدَحُوني، أو ذَمُّوني، وسأتصدق، سواء مَدَحُوا أو ذَمُّوا؛ هذا هو الإِخْلاص.

أما أَنْ يَقول الإِنسَان: إذا مدحوني تصدقت، وإلا فلا، فتجده لا يتصدق إلا في المَجامع العامَّة مثلًا؛ فهذا لَيْسَ بمخلص.

[١] قوْله تعَالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة:١١٩]، هذه الآية ذكرها الله عَزَّوَجَلَّ بعد قِصة الثلاثة الذين خُلِّفُوا وصَدقوا، فأمرَنا اللهُ عَزَّوَجَلَّ أن نتقيَ الله، وَأَنْ نَكُونَ مع الصادقين.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، رقم (٣٦١٠)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب ذكر الخوارج وصفاتهم، رقم (١٠٦٤).

(٢) أخرجه أحمد برقم (١١٥)، والترمذي: كتاب الفتن، باب ما جاء في لزوم الجماعة، رقم (٢٠٩١).

قَالَ القُشَيْرِيُّ: «الصِّدْقُ عِمَادُ الأَمْرِ، وَبِهِ تَمَامُهُ، وَفِيهِ نِظَامُهُ، وَأَقَلُّهُ اسْتِوَاءُ السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ»(١)[١].

وَرُوِّينَا عَنْ سَهْلِ بْنِ عَبْدِ اللهِ التُّسْتَرِيِّ قَالَ: «لَا يَشَمُّ رَائِحَةَ الصِّدْقِ عَبْدٌ دَاهَنَ نَفْسَهُ، أَوْ غَيْرَهُ»(٢).

وَعَنْ ذِي النُّونِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ قَالَ: «الصِّدْقُ سَيْفُ اللهِ، مَا وُضِعَ عَلَى شَيْءٍ إِلَّا قَطَعَهُ»(٣).

وَعَنِ الحَارِثِ بْنِ أَسَدٍ المُحَاسِبِيِّ، بِضَمِّ المِيمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ قَالَ: «الصَّادِقُ هُوَ الَّذِي لَا يُبَالِي لَوْ خَرَجَ كُلُّ قَدْرٍ لَهُ فِي قُلُوبِ الخَلْقِ مِنْ أَجْلِ صَلَاحِ قَلْبِهِ، وَلَا يُحِبُّ اطِّلَاعَ النَّاسِ عَلَى مَثَاقِيلِ الذَّرِّ مِنْ حُسْنِ عَمَلِهِ، وَلَا يَكْرَهُ اطِّلَاعَهُمْ عَلَى السَّيِّئِ مِنْ عَمَلِهِ، لِأَنَّ كَرَاهَتَهُ ذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ يُحِبُّ الزِّيَادَةَ عِنْدَهُمْ، وَلَيْسَ هَذَا مِنْ أَخْلَاقِ الصِّدِّيقِينَ»(٤)[٢].

---

[١] والصدق يكون باللسان، ويكون بالجوارح، ويكون بالقَلب؛ فالصدقُ بالقَلب يعود إلى الإِخْلاص؛ وباللسان يعود لمطابقة الواقع؛ وبالجوارح يعود لمتابعة النَّبي ﷺ.

[٢] قوْل المحاسَبي هنا فيه نَظَرٌ أيضًا، أَلَيْسَ الإِنسَان يدعو ويَقول: اللهم استُر عَوْرَاتي؟! فهذا يَعْني أنه يَكْرَهُ أَنْ يَطَّلِعَ النَّاس علَيْه، لكن كل هذه العبارات مأخوذة مِن عبارات الصوفية؛ فيها حق، وفيها باطل.

---

(١) الرسالة القشيرية (٢/ ٣٦٣).
(٢) الرسالة القشيرية (٢/ ٣٦٤).
(٣) الرسالة القشيرية (٢/ ٣٦٥).
(٤) الرسالة القشيرية (٢/ ٣٦٦).

وَعَنْ أَبِي القَاسِمِ الجُنَيْدِ بْنِ مُحَمَّدٍ[١] رَحِمَهُ ٱللَّهُ قَالَ: «الصَّادِقُ يَتَقَلَّبُ فِي اليَوْمِ أَرْبَعِينَ مَرَّةً، وَالمُرَائِي يَثْبُتُ عَلَى حَالَةٍ وَاحِدَةً أَرْبَعِينَ سَنَةً»[٢].

قُلْتُ: مَعْنَاهُ أَنَّ الصَّادِقَ يَدُورُ مَعَ الحَقِّ حَيْثُ دَارَ، فَإِذَا كَانَ الفَضْلُ الشَّرْعِيُّ فِي الصَّلَاةِ مَثَلًا صَلَّى، وَإِذَا كَانَ فِي مُجَالَسَةِ العُلَمَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَالضِّيفَانِ وَالْعِيَالِ، وَقَضَاءِ حَاجَةِ مُسْلِمٍ، وَجَبْرِ قَلْبٍ مَكْسُورٍ، وَنَحْوِ ذَلِكَ، فَعَلَ ذَلِكَ الأَفْضَلَ، وَتَرَكَ عَادَتَهُ، وَكَذَلِكَ الصَّوْمُ وَالْقِرَاءَةُ وَالذِّكْرُ وَالْأَكْلُ وَالشُّرْبُ وَالْجِدُّ وَالمَزْحُ وَالِاخْتِلَاطُ وَالِاعْتِزَالُ وَالتَّنَعُّمُ وَالِابْتِذَالُ وَنَحْوُهَا، فَحَيْثُ رَأَى الفَضِيلَةَ الشَّرْعِيَّةَ فِي شَيْءٍ مِنْ هَذَا فَعَلَهُ، وَلَا يَرْتَبِطُ بِعَادَةٍ، وَلَا بِعِبَادَةٍ مَخْصُوصَةٍ، كَمَا يَفْعَلُهُ المُرَائِي[١].

---

[١] والأوَّل هو حال النَّبِي ﷺ؛ حيْثُ كان عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يفعل الأفضل، ولهذا كان أحيانًا يوتر بثلاث، وأحيانًا بخمس، وأحيانًا بسبع[٣]، وكان يصوم ثلاثة أيام مِن الشهر، أحيانًا مِن أوَّلِه، وأحيانًا مِن آخره، وأحيانًا مِن وَسَطِه[٤].

---

(١) هو الجنيد بن محمد بن الجنيد أبو القاسم الخزاز، ويقال: القواريري، وقيل: كان أبوه قواريريًّا، وكان هو خَزَّازًا، وأصله مِن نَهاوَند، إلا أن مولده ومنشأه ببغداد، وسمع بها الحديث، ولقي العلماء، ودرس الفقه على أبي ثور، وصحب جماعة من الصالحين، واشتهر منهم بصحبة الحارث المحاسبي، وسري السقطي، ثم اشتغل بالعبادة ولازمها، حتى عَلَتْ سِنُّه، وصار شيخ وقته، وفريد عصره في عِلم الأحوال والكلام على لسان الصوفية، وطريقة الوعظ، وله أخبار مشهورة، وكرامات مأثورة، وأسند الحديث عن الحسن بن عرفة. ترجمته في تاريخ بغداد (٨/ ١٦).

(٢) الرسالة القشيرية (٢/ ٣٦٣).

(٣) أخرجه النسائي: كتاب قيام الليل وتطوع النهار، باب ذكر الاختلاف على الزهري في حديث أبي أيوب، رقم (١٦٩١).

(٤) أخرجه مسلم: كتاب الصيام، باب استحباب صيام ثلاثة أيام من كل شهر، رقم (١١٦٠).

.....

وكان يصوم حتى يُقال: لا يُفْطِرُ، ويُفْطِرُ حتى يقال: لا يَصُوم[١]. فالمؤمن يتتبع مواقع الخير والأفضلية فيقوم بها.

فمثلًا: قَدْ يَكُونُ في محادثته للضيوف، وإدخال السرور عليهم أفضل مِن كونه يقرأ شيئًا مِن القرآن، أو يبقى في زاوية مِن بيته يطالع ويراجع.

فلكلّ حالٍ ما يناسبها، فالبَس لكلّ حالةٍ لَبُوسَها الذي يناسب، لكن المرائي يبقى على حال واحدة.

فإن قال قائلٌ: كَيْفَ تقولون هذا، وقد قال النَّبِي ﷺ: «**أَحَبُّ الأَعْمَالِ إِلَى اللهِ تَعَالَى أَدْوَمُهَا، وَإِنْ قَلَّ**»[٢]، وهذا يدُلّ على المداومة؟

قُلْنا: نعم، أدومه، لكن لَيْسَ المعنى ألَّا تنتقل إلى أفضل، بل المعنى: ألَّا تُقَصِّرَ دُونَه، سواء فَعَلْتَه هو بِعَيْنِه، أو فعلتَ ما هو أفضل.

والإنسان تختلف به الأحوال، فمعنى قوْله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**أَحَبُّ الأَعْمَالِ إِلَى اللهِ تَعَالَى أَدْوَمُهَا، وَإِنْ قَلَّ**» أي: أَلَّا تنقص عنه، وأَمَّا إذا فعلتَ ما هو خير، فقد قال النَّبِي ﷺ لمن نذر أَنْ يصليَ في بيت المقدس: «**صَلِّ هَا هُنَا**»[٣]، وجعَلَه مُوفيًا بنذره إذا صلى في مكة أو المدينة بدلًا عن بيت المقدس.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصوم، باب ما يذكر من صوم النبي ﷺ، رقم (١٩٧١؛ ومسلم: كتاب الصيام، باب صيام النبي ﷺ، رقم (١١٥٦).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضيلة العمل الدائم من قيام الليل وغيره، رقم (٧٨٢).

(٣) أخرجه أحمد (١٤٥٠٢)، وأبو داود: كتاب الأيمان والنذور، باب من نذر أَنْ يصلي في بيت المقدس، رقم (٣٣٠٥).

وَقَدْ كَانَتْ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ أَحْوَالٌ فِي صَلَاتِهِ وَصِيَامِهِ وَأَوْرَادِهِ وَأَكْلِهِ وَشُرْبِهِ وَلُبْسِهِ وَرُكُوبِهِ وَمُعَاشَرَةِ أَهْلِهِ وَجِدِّهِ وَمَزْحِهِ وَسُرُورِهِ وَغَضَبِهِ، وَإِغْلَاظِهِ فِي إِنْكَارِ الْمُنْكَرِ، وَرِفْقِهِ فِيهِ، وَعُقُوبَتِهِ مُسْتَحِقِّي التَّعْزِيزِ، وَصَفْحِهِ عَنْهُمْ، وَغَيْرِ ذَلِكَ بِحَسَبِ الإِمْكَانِ، وَالْأَفْضَلِ فِي ذَلِكَ الوَقْتِ وَالْحَالِ[١].

وَلَا شَكَّ فِي اخْتِلَافِ أَحْوَالِ الشَّيْءِ فِي الأَفْضَلِيَّةِ(١)، فَإِنَّ الصَّوْمَ حَرَامٌ يَوْمَ العِيدِ وَاجِبٌ قَبْلَهُ مَسْنُونٌ بَعْدَهُ[٢].

وَالصَّلَاةُ مَحْبُوبَةٌ فِي مُعْظَمِ الأَوْقَاتِ، وَتُكْرَهُ فِي أَوْقَاتٍ وَأَحْوَالٍ، كَمُدَافَعَةِ الأَخْبَثَيْنِ.

وَقِرَاءَةُ القُرْآنِ مَحْبُوبَةٌ، وَتُكْرَهُ فِي الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ وَغَيْرِ ذَلِكَ.

وَكَذَلِكَ تَحْسِينُ اللِّبَاسِ يَوْمَ الجُمُعَةِ وَالْعِيدِ، وَخِلَافُهُ يَوْمَ الِاسْتِسْقَاءِ[٣]،...

---

[١] هذه قاعدة مُهمة يَنْبغِي لِلإنْسَان أَنْ يبنيَ عملَه عليها، وأن ينتقلَ مِن المفضول إلى الأفضل، سَوَاءٌ كَانَ مِن جِنسه، أو مِن غير جِنسه؛ لأن المقصود هو التقرُّب إلى الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وإذا كان هذا هو المقصود، فإن الإنسَان يتحرى ما هو أفضل وأقرب إلى الله سبحانه وبحمده.

وهذه الجملة التي ذَكَرَها المؤلف مِن أحسن ما مرَّ علينا الآن.

[٢] يَعْني بذلك عيد الفطر.

[٣] ظاهر كلام المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوْله: «**وَخِلَافُهُ يَوْمَ الِاسْتِسْقَاءِ**» أَنَّ الإنسَان يـوم الاستسقاء يتعمد أَنْ يلبس الثياب التي لَيْسَتْ جميلة، والظَّاهر أَنَّ الأمـر بخلاف

---

(١) في المطبوعة: إلا فضيلة، وهو تحريف، والظاهر ما أثبتناه.

وَكَذَلِكَ مَا أَشْبَهَ هَذِهِ الأَمْثِلَةَ.

وَهَذِهِ نُبْذَةٌ يَسِيرَةٌ تُرْشِدُ المُوَفَّقَ إِلَى السَّدَادِ، وَتَحْمِلُهُ عَلَى الِاسْتِقَامَةِ، وَسُلُوكِ طَرِيقِ الرَّشَادِ.

ما قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ من أنه يخرج غير متجمل؛ بل يخرج بثيابه المعتادة؛ لأنه إلى الآن لم نعلم أَنَّ الرَّسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كان إذا أراد الاستسقاء خرج بثياب لَيْسَتْ جميلة، يَعْني يتعمد الثياب الرديئة الخَلِقَة.

بَابٌ فِي: فَضِيلَةِ الاشْتِغَالِ بِالْعِلْمِ وَتَصْنِيفِهِ وَتَعَلُّمِهِ وَتَعْلِيمِهِ وَالْحَثِّ عَلَيْهِ وَالإِرْشَادِ إِلَى طُرُقِهِ

قَدْ تَكَاثَرَتِ الآيَاتُ وَالْأَخْبَارُ وَالْآثَارُ وَتَوَاتَرَتْ.

وَتَطَابَقَتِ الدَّلَائِلُ الصَّرِيحَةُ، وَتَوَافَقَتْ عَلَى فَضِيلَةِ العِلْمِ، وَالْحَثِّ عَلَى تَحْصِيلِهِ، وَالِاجْتِهَادِ فِي اقْتِبَاسِهِ وَتَعْلِيمِهِ.

وَأَنَا أَذْكُرُ طَرَفًا مِنْ ذَلِكَ تَنْبِيهًا عَلَى مَا هُنَالِكَ.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر:٩]، وقال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه:١١٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر:٢٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة:١١].

وَالْآيَاتُ كَثِيرَةٌ مَعْلُومَةٌ[١].

---

[١] في هذه الآيات يَقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾، وهذا الاستفهام بمَعْنى النفي، أي: لا يستوي الذين يعلمون، والذين لا يعلمون، والمُراد بذلك العِلم الشرعي.

وفي الآية الثَّانية قال: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ والخطاب للنبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وقبل هذه قال: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾.

وَرُوِّينَا عَنْ مُعَاوِيَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ**»(١). رَوَاهُ البُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ[١].

وإذا كان الله يأمر نبيَّه أَنْ يسأله أَنْ يزيده مِن العِلم، فمَنْ دُونه مِن بابِ أَوْلَى، ولهذا يَنْبَغِي لك أن تسأل الله دائمًا أَنْ يَزيدك مِن العِلم فتقول: اللهم عَلِّمْنِي ما ينفعني، وانفعني بما علَّمتني، وزِدْنِي عِلمًا؛ لأنَّك محتاج إلى ذلك.

وأما قوْله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ فهذه شهادة مِن الله، ويا لها مِن شهادة؛ أَنَّ العُلَماء هم أهل الخشية، والمُراد بالعُلَماء هنا العُلَماء بالله، فكلما كان الإِنسَان بالله أعْلَمَ، كان له أخشى، ومنه أَخْوَفُ، فكلما صار الإِنسَان عالمًا بالله؛ بأسمائه وصفاته وأفعاله وأحكامه، فإنه لَا بُدَّ أَنْ يزداد خشية لله عَزَّوَجَلَّ.

وقال: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ فذَكَر الله أن أسباب رفع الإِنسَان هو الإيمان والعِلم.

وفي قوْله: ﴿وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ إشارة إلى أَنَّ العِلم لا يُدركه الإِنسَان بنَفسِه، وأن الإِنسَان مُفتقر إلى الله عَزَّوَجَلَّ في تحصيله، فَلَيْسَ العِلم مِن كَسْبِكَ، وكَمْ مِن إنسانٍ بَقِيَ سنواتٍ عديدة يطلب العِلم، ولم يُحصِّلْه، وكَمْ مِن إنسان حَصَّل عِلْمًا كثيرًا في مدة قصيرة، كل هذا يعتمد على اعتماد الإِنسَان على ربّه، وسؤاله ربَّهُ أَنْ يزيده مِن العِلم.

[١] قد يتبادر لِلإِنْسَان أن معنى قوْله ﷺ: «**يُفَقِّهْهُ**» أي: يُعَلِّمُه، وليس كذلك؛ لأن الفِقه غير العِلم، الفِقْهُ أَنْ تَعْلَمَ وتَعْمَلَ، ولهذا دائمًا يَذْكُرُ اللهَ عَزَّوَجَلَّ عن الكفار

(١) أخرجه البخاري: كتاب العلم، باب من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين، رقم (٨١)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب النهي عن المسألة، رقم (١٠٣٧).

وَعَنْ أَبِي مُوسَى عَبْدِ اللهِ بْنِ قَيْسٍ الأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ مَثَلَ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَصَابَ أَرْضًا فَكَانَتْ مِنْهَا طَائِفَةٌ طَيِّبَةٌ قَبِلَتِ الْمَاءَ فَأَنْبَتَتِ الْكَلَأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ، وَكَانَ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ، فَنَفَعَ اللهُ بِهَا النَّاسَ، فَشَرِبُوا مِنْهَا، وَسَقَوْا وَزَرَعُوا، وَأَصَابَ طَائِفَةً مِنْهَا أُخْرَى، إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لَا تُمْسِكُ الْمَاءَ، وَلَا تُنْبِتُ كَلَأً، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ اللهِ، وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ، فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا،.....

أنهم لا يفقهون: ﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النِّساء:٧٨].

لكن مِن المعلوم أنه لا عَمَل إلا بِعِلْمٍ، فالعِلْمُ يَسبق ثم العَمل، أَمَّا شخصٌ يَعْلَمُ، ولا يَعْمَلُ، فهو قارئ، وليس بِفَقِيهٍ، ولهذا جاء عن عبد الله بْن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «كَيْفَ أَنْتُمْ إِذَا لَبِسَتْكُمْ فِتْنَةٌ يَهْرَمُ فِيهَا الكَبِيرُ، وَيَرْبُو فِيهَا الصَّغِيرُ، وَيَتَّخِذُهَا النَّاسُ سُنَّةً، فَإِذَا غُيِّرَتْ قَالُوا: غُيِّرَتِ السُّنَّةُ». قَالُوا: وَمَتَى ذَلِكَ يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ؟ قَالَ: «إِذَا كَثُرَتْ قُرَّاؤُكُمْ، وَقَلَّتْ فُقَهَاؤُكُمْ، وَكَثُرَتْ أُمَرَاؤُكُمْ، وَقَلَّتْ أُمَنَاؤُكُمْ، وَالْتُمِسَتِ الدُّنْيَا بِعَمَلِ الآخِرَةِ»[1].

فلَا بُدَّ مِن الفقه؛ ولا بُدَّ أَنْ يَكُونَ الإِنسَان عاملًا بِعِلْمِه؛ وإلا فَلَيْسَ بفقيه.

وقوله: «مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ» إذا رأيتَ مِن نفسك أَنَّ الله تعَالى أعطاك عِلمًا، وفَقَّهَك في ذلك، وعَرَفْتَ الحِكَم والأسرار مِن أحكامِ الله عَزَّوَجَلَّ، وقُمْتَ بذلك، فَاعْلَمْ أَنَّ الله تعَالى أرادَ بك خيرًا، وهذا كقوله تعَالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [اللَّيل:٥-٧].

---

(١) أخرجه الدارمي، في المقدمة، باب تغير الزمان وما يحدث فيه، رقم (١٩٥).

وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ». رَوَاهُ البُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ(١)[١].

وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَيْنِ رَجُلٌ آتَاهُ اللهُ مَالًا فَسَلَّطَهُ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الحَقِّ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللهُ الحِكْمَةَ، فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا». رَوَيَاهُ(٢).

---

[١] وهذا مثال منطبق تمامًا، فالمَطَرُ إذا أصابَ أرضًا، فإنها تنقسم إلى ثلاثةِ أقسام:

القِسم الأوَّل: أرضٌ قَبِلَتِ الماء، وأنبتتِ الكَلَأَ، فانتفع النَّاس منها بما أنبتت.

والقِسم الثَّاني: أرض أُخرى قِيعَانٌ، لا تُنْبِتُ، لكنها تَحْفَظُ الماء، وهذه تنفع النَّاس حيْثُ يَرْوُون ويسقون.

والقِسم الثالث: قِيعان لا تُمْسِكُ الماء، بل تَبْلَعُهُ، ولا تُنْبِتُ الكلأ، وهذه لا خير فيها.

الأوَّل: كعُلماء الحديث الفُقهاء.

والثَّاني: كَرُوَاة الحديث الذين نَقَلُوا الشريعة، لكن لم يُنتجوا منها شيئًا، تجده يحفظ الحديث ويرويه، لكن لا يفقه المعنى كثيرًا.

والثالث: مَن لم يرفع بالشريعة رأسًا، ولم يُبَالِ بها، وكأنها عنده أساطير الأوَّلين -والعياذ بالله-.

قوْله: «وَكَانَ مِنْهَا أَجَادِبُ فَأَمْسَكَتِ المَاءَ».

الأَجَادِبُ: هي الأرضُ التي لا تُنْبِتُ، حتى لَوْ جاءها السَّيْلُ، فهي دائمًا في جَدْبٍ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب العلم، باب فضل من عَلِم وعَلَّم، رقم (٧٩)، ومسلم: كتاب الفضائل، باب بيان مثل ما بعث به النبي ﷺ، رقم (٢٢٨٢).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب العلم، باب الاغتباط في العلم والحكمة، رقم (٧٣)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه، رقم (٨١٦).

وَالْمُرَادُ بِالْحَسَدِ الغِبْطَةُ، وَهِيَ أَنْ يَتَمَنَّى مِثْلَهُ[١].

وَمَعْنَاهُ: يَنْبَغِي أَلَّا يَغْبِطَ أَحَدًا إِلَّا فِي هَاتَيْنِ الْمُوصِلَتَيْنِ إِلَى رِضَاءِ اللهِ تَعَالَى.

---

[١] صَحيح؛ يَعْني لا يَنْبَغِي لِلإِنْسَان أَنْ يَغْبِطَ شخصًا على ما آتاه الله تعَالى مِن القُصور والمراكب الفَخمة والأبناء والزوجات، وما أَشْبَهَ ذلك، فهذا لَيْسَ فيه غِبطة، الغِبطة حقيقة تكون في أمرين:

■ **الأوَّل**: رَجُلٌ آتاهُ الله مالًا، فَسَلَّطَه على هلكَتِه في الحق، كُلَّمَا ذُكِرَ له بابُ خير تَبَرَّع له؛ هذا يُغْبَطُ على أَنَّ الله تعَالى أعطاه المال، ونفَعَهُ به.

■ **والثَّاني**: رَجُلٌ آتاهُ الله الحِكمة -وهي العلم- فهو يَقضي بها ويُعَلِّمُها.

ولكن الثَّاني أشدُّ غِبطةً ولا شَكَّ؛ لأن الثَّانيَ تبقى منافِعُه، والأوَّل تَزُولُ؛ إِمَّا في مُدَّةٍ قصيرة، أو في مُدَّةٍ طويلة.

ولهذا نحن نعلم -مثلًا- أنَّ أُناسًا في عهد أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بَذَلُوا مِن الأموال العظيمة في سبيل الله، وفي حَفْرِ الآبار، وإجراء الأنهار، وما أَشْبَهَ ذلك، ولكنها زالت الآن، أَمَّا آثارُ عِلْمِ أبي هُرَيْرَةَ فإنها لا تزال إلى الآن.

وكذلك نَعلم أنَّ في وقتِ الإمام أحمدَ، وغيرِه مِن الأئِمَّة -رحمهم الله جميعًا- كان هناك أُناس بَذَلُوا الأموال العظيمة، وكُلُّها ذهبت؛ إِنَّما في حاضر وقتِ الإِنسَان لا يُغْبَط إلا هذان النوعان: رَجل عنده مالٌ كثير يَبذلُه في الحقِّ، والثَّاني: عنده عِلم يُعَلِّمُه النَّاس.

أما الجاهل فلا يُغْبَط، والفقير لا يُغْبَطُ، والغَنِيُّ المُسْرِفُ الذي يَبْذُلُ مالَه في غير فائدة، وَرُبَّمَا فيما يُغْضِبُ اللهَ؛ هذا أيضًا لا يُغْبَطُ.

.....

فإن قال قائلٌ: كونُ الإنسَان يَنْبغِي له أَنْ يعمل الصالحات حَسَبَ الحال، فَهَلْ مَعْنَى هذا صِحَّةُ قولهم: «العِبادَة عَمَلٌ كل شيْء في وقته»؟

نقول: -كما سبق- الرَّسولُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كان يصوم حتى يُقال: لا يُفْطِرُ، ويُفْطِرُ حتى يقال: لا يَصُوم[1].

وكذلك في القيام، والإنسان إذا انتقل مِن عبادةٍ إلى أفضلَ منها، فهذا طَيِّبٌ، وما ضَاعَ علَيْه شيْء.

يَعْني معْنَاهُ أَنْ يَتَعَبَّدَ لله تعَالى بما يناسب الحال إلا الفرائض، فَلَيْسَ في الفرائض تغيير، لَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ على ما جرى علَيْه الشرع.

فإن قال قائلٌ: ما دام اللهُ عَزَّوَجَلَّ يُثيب طالِبَ العِلم على نِيَّته، ولو حال الموتُ بَيْنَهُ، وبَيْنَ بُغْيَته، فكيف نُوَفِّقُ بين هذا الأمر، وبَيْنَ حديث عَبْدِ اللهِ بْنِ بُسْرٍ، أَنَّ أَعْرَابِيًّا قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ مَنْ خَيْرُ النَّاسِ؟ قَالَ: «**مَنْ طَالَ عُمُرُهُ، وَحَسُنَ عَمَلُهُ**»[2]؟

صَحيح، هذا خيرٌ، لكن بشرط أَنْ يَحْسُنَ عملُه؛ لأن هذا أَدْرَكَ العملَ والنِّيَّة، والأوَّل لم يُدرك العَمل، لكنه أدرك النِّيَّة، وعمل أيضًا ما استطاع.

قوْله «**رُوِّينَا**»: يَعْني بالسَّنَد، ولهذا دائمًا يَمُرُّ علينا: «روى فلانٌ بِسَنَدِهِ إلى فلان» إلى عُمَرَ، إلى عَلِيٍّ، إلى عثمان، فَهَلِ النَوَوِيّ قد روى بالسَّنَدِ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصوم، باب ما يذكر من صوم النبي ﷺ، رقم (١٩٧١؛ ومسلم: كتاب الصيام، باب صيام النبي ﷺ، رقم (١١٥٦).

(٢) أخرجه أحمد (١٧٢٤٥)، والترمذي: كتاب الزهد، باب ما جاء في طول العمر للمؤمن، رقم (٢٣٢٩).

.....

نعم، روى عن عُمَرَ بنِ الخطاب بالسَّنَدِ، لكنِ الظَّاهرُ أنَّ رُوِّيْنَا أحسنُ.

قد يَقول قائل: إن بعضَ الجهاتِ الخيريةَ يكتُبون في مَقَرِّ أعمالهم قوْله تعَالى: ﴿وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ [التوبة:١٠٥]؟

الجواب: أَنَّ هذا غَلَطٌ، وليس بصحيح، فالرسولُ ﷺ لا يَرَى أعمالَنا ولا يعلمها، وَإِنْ كَانَ قد وَرَدَ أنَّ أعمالَ أُمَّتِه تُعْرَضُ علَيْه[1]، لكن هذا العملُ بالذات لا تستطيع أن تجزم به.

ثم هي آيتان: ﴿وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ﴾ [التوبة:١٠٥] ما فيها: ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾، ﴿وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾، والآية الثَّانية: ﴿وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ وَسَتُرَدُّونَ﴾ إحدى الآيتين في المنافقين تهديدًا لـهم.

فَإِنْ قِيلَ: ذَكَرْتُم أَنَّ الفِقه هو العِلم مع العَمل، وقد وَرَدَ في الحديثِ أَنَّ النبيَّ عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قال: «فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ»[2]، أَلَا يكون المقصود بالفقه هنا مجرد العِلم دُون العَمل؟

الجواب: لا أبـدًا، لَا بُـدَّ مِنَ العَمل، وقد ذكـرت سابقًا أَثَـرَ عبدِ الله بنِ مسعود

(١) من ذلك ما أخرجه أحمد برقم (١٥٧٢٩)، وأبو داود: كتاب الصلاة، باب في الاستغفار، رقم (١٣٠٨)، والنسائي: كتاب الجمعة، باب إكثار الصلاة على النبي ﷺ، رقم (١٣٥٧)، وابن ماجه: كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب في فضل الجمعة، رقم (١٠٨٥).

(٢) أخرجه أحمد (١٦٣١٢)، وأبو داود: كتاب العلم، باب فضل نشر العلم، رقم (٣٦٦٠)، والترمذي: كتاب العلم، باب ما جاء في الحث على تبليغ السماء، رقم (٢٦٥٦)، وابن ماجه: في المقدمة، باب من بلّغ علمًا، رقم (٢٣١).

.....

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لِيَتَبَيَّنَ أَنَّ الفِقه لَيْسَ في تَعَلُّمِ الإِنسَان الشريعة فقط، بل لَا بُدَّ مِن عِلْمٍ وعَمَلٍ.

والإنسانُ الذي يَعلم، ولا يَعمل لَيْسَ بفقيه، وأين الفِقه؟! الكفار يَعلمون، ولا يَعملون، وحَكَمَ اللهُ عليهم بأنهم لا يَفقهون.

قد يُثني النَّاس على الشخص إذا عَمِلَ عَمَلًا ما، وقد يجد في نفسه انبساطًا إلى هذا المدْح، فَهَلْ هذا مما يُنافي الإِخْلاص؟

الإِنسَان إذا عَمِلَ عَمَلًا، وسَمِعَ ثَناء النَّاس علَيْه، ضروري سيفرح، لكن هو لا يبالي لَوْ لم يُثْنُوا علَيْه لا يمتنع عن عَمله، فهو يَقول: أنا أَحْمَدُ الله عَزَّوَجَلَّ أني كنت في مَقامٍ يُثنى عليَّ فيه، لكن لَوْ لم يُثنوا عليَّ ما أَثْنَانِي هذا عن عملي؛ هذا هو الإِخْلاص.

فَإِنْ قِيلَ: قد يَشرع الإِنسَان في العبادة، ويُقبل على ربّه فيها، ولكن يَغْفُل في عبادته، فَهَلْ هذا ينافي الإِخْلاص؟

نعم، لا شَكَّ أن غَفْلَة الإِنسَان حين فِعْلِ العبادة يَدُلُّ على نَقْصِ الإخلاصِ عنده؛ لأن مَن أَخْلَصَ لشيْء، فلا بُدَّ أَنْ يَكُونَ ذلك على باله، وإذا غفل، فمعْنَاهُ أنه لَيْسَ هناك قصدٌ قَوِيٌّ يَحُثُّه على أَنْ يعمل.

ومسائلُ القُلوب صَعْبَةٌ جِدًّا، وليست بالهَيِّنَة، نَسْأَلُ اللهَ أَنْ يُعِينَنا وإياكم عليها، يَعْني نحن نَعمل الأعمال الظَّاهرة ونُجِيدُها، لكن مسْألة الإِخْلاص، ومُراقبة القلب وإصلاحه، هذا ضعيف عندنا، ولذلك نَحُثُّ أنفُسنا وإياكم دائمًا على أَنْ يَنْظُرَ الإِنسَان إلى القلب، ويكفي في هذا قولُ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا﴾ [الكهف:٢٨] ولم يقل: مَن أَغْفَلْنَا لِسَانَهُ.

.....

فَإِنْ قِيلَ: رُوِيَ عن بعض السَّلَفِ أنه قال: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَطْلُبُ العِلْمَ لِغَيْرِ اللهِ، فَيَأْبَى عَلَيْهِ العِلْمُ حَتَّى يَكُونَ لله»[1].

وَقَالَ أَبُو دَاوُدَ لِأَحْمَدَ بْن حنبل: كَتَبْتَ الحَدِيثَ بِنِيَّةٍ؟

قَال: «شَرْطُ النِّيَّةِ شَدِيدٌ، وَلَكِنْ حُبِّبَ إِلَيَّ فَجَمَعْتُهُ»[2].

فما فِقه هذه الآثار المروية عنهم، مع أنهم سادات العُلَماء، والسَّلَف الصالح؟

الجواب: هذه الآثار في أوَّل الطلب، فالإنسان في أوَّل الطلب رُبَّمَا يريد شيئًا، إما يريد أَنْ يَكُونَ مثل إخوانه وأقرانه، أو لغير ذلك من الأسباب، فإذا كثُر عِلمه وَغَزُر، وعرف أحكام الله تعَالى وحِكَمَهَا، انقلب الأمر.

ويقولون هذه الكلمة -فيما يظهر لي- يريدون أَلَّا يَنْثَنِيَ عزمُ الإِنسَان إذا أحسَّ بشيْء في نفسه، أو في نِيَّته، فإن الأمر سَوْفَ يعود إلى الأحسن.

فإن قيل: قد يجد الإِنسَان مِن نفسه في بعض الأحيان أنه لَوْ جلس في منزله لَكَانَ أنفعَ له، فيقرأ، ويبحث في مسائلَ، ويحفظ شيئًا، بينما لَوْ حضر للدرس لَحَضَرَ إرضاءً للمُعَلِّم؛ لأن المُعَلِّمَ -مثلًا- يُريد حضوره للدروس كافة، فَهَلْ حضوره للدرس بهذه الحالة فيه شيْء مِن الرِّيَاء؟

فالجَواب: هذا لَيْسَ فيه شيْء، يَعْني مُراعاة النَّاس للتأليف لَيْسَتْ رياء، فمراعاة النَّاس بمَعْنى: طلب إرضائهم، لكنه لَيْسَ للتقرب إليهم بالعبادة.

---

(١) أخرجه معمر بن راشد في الجامع (١١/ ٢٥٥، رقم ٢٠٤٧٤).

(٢) الآداب الشرعية، لابن مفلح (٢/ ٤٠).

وَعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ لِعَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**فَوَاللهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ**». رَوَيَاهُ(١)[١].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا، وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ**». رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٢)[٢].

---

[١] قال النَّبي ﷺ هذا لعلي بْن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين بعثه إلى خَيْبَرَ، فَهَلِ المُراد بقوله: «**لَأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا**»، أي: مِن الكُفر إلى الإسلام، أو يَشمل حتى ما لَوْ كَانَ في أدنى مسْألة مِن مسائل العِلم؟

الظَّاهر الأوَّل؛ اعتبارًا بالقرينة، ولأن الهداية مِن الكفر إلى الإسلام لا يُعادِلُها شيْء مِن الهداية في بعض مسائل العِلم، ولكن ينطبق على الهداية في بعض مسائل العِلْم الحديث الذي بعده.

[٢] قوْله: «**مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى**»، و«**مَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ**»، الدعوةُ تكون بالقول، وتكون بالفِعل؛ أما القولُ فظاهِرٌ، وأمَّا الفِعل، فأن يفعلَ حَسنة، فيراهُ النَّاس، فيَقْتَدُوا به فيها، فيكون داعيًا لذلك.

وكذلك الضلالة؛ الدعوةُ إليها بالقول واضح، والدعوة إليها بالفعل كأَنْ يعمل أعمالًا سيئة، فيتبعه النَّاس في ذلك.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب فضل من أسلم على يديه رجل، رقم (٣٠٠٩)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رقم (٢٤٠٦).
(٢) أخرجه مسلم: كتاب العلم، باب من سنَّ سنة حسنة أو سيئة، رقم (٢٦٧٤).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا مَاتَ ابْنُ آدَمَ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ: صَدَقَةٌ جَارِيَةٌ، أَوْ عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٌ صَالِحٌ يَدْعُو لَهُ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ(١)[١].

ويدل لِهَذَا قوْل النَّبي ﷺ: «مَنْ سَنَّ فِي الإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً، فَلَهُ أَجْرُهَا، وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ فِي الإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً، كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ»(٢).

وفي هذا الحديث، والذي سبقه حَثٌّ بالِغٌ على أَنْ يَكُونَ الإِنسَان إمامًا في الخير، في الدَّعوة إليه، وفي فِعله؛ حتى يجيبَه النَّاس ويَتَّبِعُوه؛ لأنه رُبَّمَا لا يطرأ على بالك أَنْ يَكُونَ الذي تَبِعَك في هذا عشرات الآلاف، وهُم يتبعونك في مَشارق الأَرْض ومغاربها.

[١] الصَّدقة الجارِيةُ هي التي يفعلُها هو بنَفسِه، ومنها: بناء المساجد، وطبع الكُتُب، وتوزيعُها على المنتَفِعين بها، وإصلاحُ الطُّرقات، وما أَشْبَهَ ذلك.

«أَوْ عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ»، هذا محلُّ الشاهد هنا.

«أَوْ وَلَدٌ صَالِحٌ يَدْعُو لَهُ»، ذكرًا أو أنثى يدْعو له؛ فإنه لا ينقطع العَمل؛ لأن الولد الصالح مِن عَمَلِ الإِنسَان في الحقيقة؛ إذْ إِنَّهُ مِن كَسْبِه، كما قال النَّبي ﷺ: «إِنَّ أَطْيَبَ مَا أَكَلْتُمْ مِنْ كَسْبِكُمْ، وَإِنَّ أَوْلَادَكُمْ مِنْ كَسْبِكُمْ»(٣).

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته، رقم (١٦٣١).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الزكاة، باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرة، رقم (١٠١٧).

(٣) أخرجه أحمد (٢٤٧٦٨)، والترمذي: كتاب الأحكام، باب ما جاء أَنَّ الوالد يأخذ من مال ولده، رقم (١٣٥٨)، وابن ماجه: كتاب التجارات، باب ما للرجل من مال ولده، رقم (٢٢٩٠).

وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ خَرَجَ فِي طَلَبِ العِلْمِ فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ حَتَّى يَرْجِعَ». رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ، وَقَالَ: حَدِيثٌ حَسَنٌ(١)[١].

وَعَنْ أَبِي أُمَامَةَ البَاهِلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَضْلُ العَالِمِ عَلَى العَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى أَدْنَاكُمْ ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ، وَأَهْلَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، حَتَّى النَّمْلَةَ فِي جُحْرِهَا، وَحَتَّى الحُوتَ، لَيُصَلُّونَ عَلَى مُعَلِّمِي النَّاسِ الخَيْرَ». رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ: حَدِيثٌ حَسَنٌ(٢)[٢].

وفي قوْله: «يَدْعُو لَهُ»، في سياق ذِكر العَمل وانقطاعه دليلٌ على أن دعاء الولد لأبيه، أو أُمِّه أفضلُ مِن أَنْ يَتَصَدَّق لهم، أو يُصَلِّيَ لهم، أو يصومَ لهم، أو ما أَشْبَهَ ذلك.

[١] هذا فيه فضل طلب العِلم مِن حِينِ أَنْ يخرج إلى أَنْ يرجع.

فَإِنْ قِيلَ: قوْله ﷺ: «مَنْ خَرَجَ فِي طَلَبِ العِلْمِ فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ حَتَّى يَرْجِعَ»، هذا السبيل هو العامُّ، أَمِ الخاصُّ؟

الظَّاهرُ أنه الخاصُّ؛ لأَنَّ اللهَ تعَالى جَعَلَ طلب العِلم مُعادلًا للجهاد كما قال تعَالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ﴾، يَعْني: وقعد طائفة ﴿لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة:١٢٢].

[٢] وجهُ فَضْلِ العالِم على العابد ظاهرٌ؛ لأن العابد مَنْفَعَتُه قاصرةٌ على نفسه، والعالِمُ منفعتُه لنفْسِه ولغيره، ولا شكَّ أنه كُلَّمَا كان العالِمُ أنفعَ لِعِبَادِ الله بِنَشْرِ العِلم والدعوة إليه، كان أفضل.

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب العلم، باب فضل طلب العلم، رقم (٢٦٤٧).

(٢) أخرجه الترمذي: كتاب العلم، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة، رقم (٢٦٨٥).

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «**لَنْ يَشْبَعَ مُؤْمِنٌ مِنْ خَيْرٍ حَتَّى يَكُونَ مُنْتَهَاهُ الجَنَّةَ**». رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ، وَقَالَ: حَدِيثٌ حَسَنٌ(١).

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**فَقِيهٌ وَاحِدٌ أَشَدُّ عَلَى الشَّيْطَانِ مِنْ الفِ عَابِدٍ**». رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ(٢).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ مِثْلَهُ، وَزَادَ: «**لِكُلِّ شَيْءٍ عِمَادٌ، وَعِمَادُ هَذَا الدِّينِ الفِقْهُ، وَمَا عُبِدَ اللهُ بِأَفْضَلَ مِنْ فِقْهٍ فِي الدِّينِ**»(٣).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ، مَلْعُونٌ مَا فِيهَا إِلَّا ذِكْرَ اللهِ، وَمَا وَالَاهُ، وَعَالِمًا وَمُتَعَلِّمًا**». رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ، وَقَالَ: حَدِيث حَسَنٌ(٤).

وَعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَبْتَغِي فِيهِ عِلْمًا**[١] **سَهَّلَ اللهُ لَهُ طَرِيقًا إِلَى الجَنَّةِ**،.....

---

[١] جزى الله المؤلف خيرًا، قوْله ﷺ: «**مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَبْتَغِي فِيهِ عِلْمًا**» يشمل الطريق الحِسِّيَّ؛ كأن يتردد الإنسانُ مِن بيته إلى مكانِ العِلم، والطريقَ المعنويَّ؛ وذلك بالتَّفَكُّر والتَّدَبُّرِ، وقراءة الكُتب، والمُبَاحَثَة مع أهل العِلم والإخوان، كل هذا طريقٌ يُوصل إلى العِلم.

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب العلم، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة، رقم (٢٦٨٦).

(٢) أخرجه الترمذي: كتاب العلم، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة، رقم (٢٦٨١)، وابن ماجه: في المقدمة، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم، رقم (٢٢٢).

(٣) مسند الشهاب (١/ ١٥٠).

(٤) أخرجه الترمذي: كتاب الزهد، باب منه، رقم (٢٣٢٢)، وابن ماجه: كتاب الزهد، باب مثل الدنيا، رقم (٤١١٢).

وَإِنَّ المَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ العِلْمِ رِضَاءً، وَإِنَّ العَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ، وَمَنْ فِي الأَرْضِ حَتَّى الحِيتَانُ فِي المَاءِ، وَفَضْلُ العَالِمِ عَلَى العَابِدِ كَفَضْلِ القَمَرِ عَلَى سَائِرِ الكَوَاكِبِ، وَإِنَّ العُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأنبياء، إِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا، وَلَا دِرْهَمًا[1]، وَإِنَّمَا وَرَّثُوا العِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَغَيْرُهُمَا(١).

وَفِي البَابِ أَحَادِيثُ كَثِيرَةٌ، وَفِيمَا أَشَرْنَا إِلَيْهِ كِفَايَةٌ.

وَأَمَّا الآثَارُ عَنِ السَّلَفِ، فَأَكْثَرُ مِنْ أَنْ تُحْصَرَ، وَأَشْهَرُ مِنْ أَنْ تُذْكَرَ، لَكِنْ نَذْكُرُ مِنْهَا أَحْرُفًا مُتَبَرِّكِينَ مُشِيرِينَ إِلَى غَيْرِهَا وَمُنَبِّهِينَ[2].

عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كَفَى بِالْعِلْمِ شَرَفًا أَنْ يَدَّعِيَهُ مَنْ لَا يُحْسِنُهُ، وَيَفْرَحَ إِذَا

---

[١] وفي قوْله: «إِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا، وَلَا دِرْهَمًا» لا يُشْكِلُ على هذا قولُ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى عن زكريا: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ [مريم:٥-٦]؛ لأن المُراد بالإرث هنا إرثُ العِلم، وليس إرثَ المال؛ لقوله: ﴿وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾، ومعلومٌ أَنَّ هذا لا يَرِثُ مِن آل يعقوب؛ لأن آل يعقوبَ يَرِثُهُم الأدنى فالأدنى، والأَوْلَى فالأَوْلَى.

[٢] قوْله: «مُتَبَرِّكِينَ» يَعْني راجِينَ فيها البركة، وليس المُراد أنه يريد التَّبَرُّكَ بكتابتها، وأوراقها المكتوبة فيها؛ إِنَّما يريد بذلك البَرَكَةَ، وكَمْ مِنْ إنسانٍ كان قولُه بَرَكَةً على نفسه، وعلى غيره.

---

(١) أخرجه أحمد (٢١٢٠٨)، وأبو داود: كتاب العلم، باب الحث على طلب العلم، رقم (٣٦٤١)، والترمذي: كتاب العلم، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة، رقم (٢٦٨٢)، وابن ماجه: في المقدمة، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم، رقم (٢٢٣).

نُسِبَ إِلَيْهِ، وَكَفَى بِالْجَهْلِ ذَمًّا أَنْ يَتَبَرَّأَ مِنْهُ مَنْ هُوَ فِيهِ»(١)[١].

وَعَنْ مُعَاذٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «تَعَلَّمُوا العِلْمَ، فَإِنَّ تَعَلُّمَهُ للهِ خَشْيَةٌ، وَطَلَبَهُ عِبَادَةٌ، وَمُذَاكَرَتَهُ تَسْبِيحٌ، وَالْبَحْثَ عَنْهُ جِهَادٌ، وَتَعْلِيمَهُ مَنْ لَا يَعْلَمُهُ صَدَقَةٌ، وَبَذْلَهُ لِأَهْلِهِ قُرْبَةٌ»(٢).

وقال أَبُو مُسْلِمٍ الخَوْلَانِيُّ: «مَثَلُ العُلَمَاءِ فِي الأَرْضِ مَثَلُ النُّجُومِ فِي السَّمَاءِ، إِذَا بَدَتْ لِلنَّاسِ اهْتَدَوْا بِهَا، وَاذَا خَفِيَتْ عَلَيْهِمْ تَحَيَّرُوا»(٣).

عَنْ وَهْبِ بْنِ مُنَبِّهٍ قَالَ: «يَتَشَعَّبُ مِنَ العِلْمِ الشَّرَفُ، وَإِنْ كَانَ صَاحِبُهُ دَنِيئًا، وَالْعِزُّ، وَإِنْ كَانَ مَهِينًا، وَالْقُرْبُ، وَإِنْ كَانَ قَصِيًّا، وَالْغِنَى، وَإِنْ كَانَ فَقِيرًا، وَالنُّبْلُ، وَإِنْ كَانَ حَقِيرًا، وَالمَهَابَةُ، وَإِنْ كَانَ وَضِيعًا، والسَّلامةُ، وَإِنْ كَانَ سَفِيهًا»(٤)[٢].

وَعَنِ الفُضَيْلِ قَالَ: «عَالِمٌ عَامِلٌ بِعِلْمِهِ يُدْعَى كَبِيرًا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ»(٥).

---

[١] هذا كلام عجيب، كلٌّ يدعي أنه عالم، وكلٌّ يفرح إِذَا قِيلَ له: فلان عالِم، وكل يتبرأ مما إِذَا قِيلَ له: أنت جاهل، فكفى بهذا شرفًا.

[٢] كل هذه العبارات واضحة، اللهم إلا قوْله: «**وَالْغِنَى، وَإِنْ كَانَ فَقِيرًا**»، ولعله أراد غِنى النفس، وغِنى القلب.

---

(١) ذكره البقاعي في النكت الوفية بما في شرح الألفية (٢/ ٢٩٣).

(٢) أخرجه ابن بشران في أماليه (ص:٢١)، وابن عبد البر، في جامع بيان العلم وفضله (١/ ٢٣٩).

(٣) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٥/ ١٢٠)، والبيهقي في المدخل إلى السنن الكبرى (ص:٢٧٤).

(٤) ذكره ابن جماعة في تذكرة السامع (ص:١٠).

(٥) أخرجه الترمذي: كتاب العلم، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة، رقم (٢٦٨٥).

وَقَالَ غيره: «أَلَيْسَ يَسْتَغْفِرُ لِطَالِبِ العِلْمِ كُلُّ شَيْءٍ؟ أَفَكَهَذَا مَنْزِلَةٌ»[١].

▪ وَقِيلَ: العَالِمُ كَالْعَيْنِ العَذْبَةِ، نَفْعُهَا دَائِمٌ.

▪ وَقِيلَ: العَالِمُ كَالسِّرَاجِ، مَنْ مَرَّ بِهِ اقْتَبَسَ.

▪ وَقِيلَ: العِلْمُ يَحْرُسُكَ، وَأَنْتَ تَحْرُسُ المَالَ، وَهُوَ يَدْفَعُ عَنْكَ، وَأَنْتَ تَدْفَعُ عَنِ المَالِ[٢].

▪ وَقِيلَ العِلْمُ حَيَاةُ القُلُوبِ مِنَ الجَهْلِ، وَمِصْبَاحُ البَصَائِرِ فِي الظُّلَمِ، بِهِ تُبْلَغُ مَنَازِلُ الأَبْرَارِ وَدَرَجَاتُ الأَخْيَارِ، وَالتَّفَكُّرُ فِيهِ وَمُدَارَسَتُهُ تُرَجَّحُ عَلَى الصَّلَاةِ، وَصَاحِبُهُ مُبَجَّلٌ مُكَرَّمٌ.

▪ وَقِيلَ: مَثَلُ العَالِمِ مَثَلُ الحَمَّةِ، تَأْتِيهَا البُعَدَاءُ، وَيَتْرُكُهَا الأَقْرِبَاءُ، فَبَيْنَا هِيَ كَذَلِكَ إِذْ غَارَ مَاؤُهَا، وَقَدِ انْتَفَعَ بِهَا، وَبَقِيَ قَوْمٌ يَتَفَكَّنُونَ، أَيْ يَتَنَدَّمُونَ.

▪ قَالَ أَهْلُ اللُّغَةِ: الحَمَّةُ -بِفَتْحِ الحَاءِ- عَيْنُ مَاءٍ حَارٍّ يُسْتَشْفَى بِالِاغْتِسَالِ فِيهَا.

▪ وَقَالَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «طَلَبُ العِلْمِ أَفْضَلُ مِنْ صَلَاةِ النَّافِلَةِ»(١).

▪ وَقَالَ: «لَيْسَ بَعْدَ الفَرَائِضِ أَفْضَلُ مِنْ طَلَبِ العِلْمِ»(٢).

---

[١] يَعْني: أيوجد منزلةٌ مِثل هذه المنزلة؟ كلُّ شيْءٍ يستغفر لطالب العِلم، أهل السماء، وأهل الأَرْض، حتى الحِيتان في البحار تستغفر له.

[٢] كل هذه عباراتٌ صحيحة.

---

(١) مسند الشافعي، ترتيب السندي (١/ ١٨).

(٢) أخرجه البيهقي في المدخل إلى السنن الكبرى (١/ ٣١٠).